مجموعة من الخُدَّام والخادمات من مدينة نصر
محاضرة بدير القدِّيس أنبا مقار بوادي النَّطرون
الجُمعة ٢ يونيو سنة ٢٠١٧م

حتميَّة الرِّباط الوثيق بين قيامة المسيح وصعوده وجلوسه عن يمين الآب لكي يمنح الرُّوح القُدُس للكنيسة

تمهيد

إننا حين نتكلَّم عن إيمان الكنيسة، فلا يكون ذلك من أجل الجدال في حدِّ ذاته، لأنَّ مناقشة أمور الإيمان تهدف أوَّلاً وأخيراً إلى تأصيل علاقة حيَّة بالمسيح، ومن ثمَّ، بالآب والرُّوح القُدُس أيضاً، وليس مجرَّد معرفة عقلانيَّة لا تنفع شيئاً.

إننا في النِّهاية نتكلَّم عن سر، هو سرّ المسيح والكنيسة. وهو سرٌّ لا يناقَش بالعقل والمنطق، خلواً من معونة الرُّوح القُدُس، والذي لا يمكنه أن يعمل إلاَّ في السَّلام، لأنَّ «ثمر البر يُزرع في السَّلام من الذين يفعلون السَّلام» (يعقوب ٣:١٨).

هذا من جهة، ومن جهة أُخرى، فإنَّ القدِّيس بولس الرَّسول، وهو أعظم من دافع عن إيمان الكنيسة، والذي قال عن نفسه إنه تعب أكثر من جميع الرُّسُل، والذي شهد بقوله إنَّ الله نفسه قد كشف له سرّ الإيمان المكتوم منذ الدُّهور، حين يقول: «إنه بإعلان عرفني بالسِّر» (أفسس ٣:٣)، هو نفسه يقول: «إن كان لي كلُّ الإيمان ... ولكن ليس لي محبَّة، فلستُ شيئاً» (١كورنثوس ١٣:٢). فلنحذر إذاً لئلاَّ نهدم المحبَّة فيما نحن ندافع عن الإيمان «أمَّا الآن فليثبت الإيمان والرجاء والمحبَّة، هذه الثَّلاثة ولكن أعظمهن المحبَّة» (١كورنثوس ١٣:١٣).

• حتمية الرِّباط الوثيق بين قيامة المسيح وصعوده وجلوسه عن يمين الآب

+ القيامة أعطت للمسيح طبيعته المهيأة للإقامة في الأعالي وعن يمين العلي. فالجسد المقام من الموت، لا تناسبه الإقامة على أرض الإنسان تحت طبيعة عالم النَّاس «أنتم من أسفل، أمَّا أنا فمن فوق» (يوحنَّا ٨:٢٣).

فأنْ يقوم المسيح من بين الأموات، فلابد أن يصعد أيضاً. فالقيامة تمهيد للصُّعود، والصُّعود تكميل للقيامة، أي أنَّ فعل الصُّعود هو فعل واحد، أكمله المسيح مرَّة واحدة، ليكمِّل به فعل القيامة.

+ يقول القدِّيس يوحنَّا في إنجيله: «ليس أحد صعد ἀναβέβηκεν إلى السَّماء، إلاَّ الذي نزل καταβάς من السَّماء، ابنُ الإنسان الذي هو في السَّماء» (يوحنَّا ٣:١٣).

فكلمة «صعد» ἀναβέβηκεν تأتي هنا في المضارع التَّام الذي يفيد الحدوث المكتمل والمستمر إلى الآن (perfect). بمعنى أنَّ الابن يحمل مجد الصُّعود في ذاته. أي أنَّ فعل "الصعود" تمَّ مرَّة واحدة، كقول رسالة العبرانيِّين: «دخل مرَّة واحدة إلى الأقداس، فوجد فداءً أبدياً» (عبرانيِّين ٦:٢٠ ؛ ٩:١٢).

وكلمة «نزل» καταβάς تأتي هنا في زمن الماضي البسيط (aorist)، أي حدوث التَّجسُّد في صميم الزَّمن. غير أنَّ زمن الماضي البسيط، لا ينفي استمراريَّة النُّزول، ولذلك جاء نفس هذا الفعل في آية أُخرى في زمن المضارع المستمر καταβαίνων والذي يفيد دوام النُّزول، وذلك في قوله: «لأنَّ خُبز الله هو النَّازل καταβαίνων من السَّماء، الواهب حياة للعالم» (يوحنَّا ٦:٣٣). أي أنَّ التَّجسُّد، هو فعلٌ، حدث في الزَّمن، ولا يزال حادثاً وقائماً إلى الأبد. وهو نفس

الأمر الذي ينطبق على القيامة والصُّعود أيضاً، وعلى كلِّ أفعال المسيح الخلاصيَّة الأُخرى.

فالذي يتكلَّم عن أمور السَّماء، هو من نزل من السَّماء، ابنُ الإنسان (بالتَّجسد)، وهو أصلاً في السَّماء. فهذه الآية التي تحمل في مضمونها رسالة النُّزول ورسالة الصُّعود، نجد أنها تجمع كلَّ أعمال المسيح الخلاصيَّة، بدءاً من التَّجسُّد، وانتهاء بالصُّعود. لأنَّ معنى الصُّعود لاهوتياً، هو تكميل عمل الخلاص الذي بدأ بفعل التَّجسُّد، والذي بسببه نزل المسيح إلينا من السَّماء.

+ ولكن الصُّعود الذي تكلَّم عنه القدِّيس لوقا في سفر الأعمال شيء، والصُّعود الذي يتكلَّم عنه المسيح في إنجيل يوحنَّا في قوله للمجدليَّة: «لا تلمسيني لأني لم أصعد بعد إلى أبي، ولكن اذهبي إلى إخوتي وقولي لهم: إني أصعد إلى أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم» (يوحنَّا ٢٠:١٧)، شيء آخر. الأوَّل يتبع مراحل الفداء الأربع: التَّجسُّد (الميلاد)، والموت (الصلب)، والقيامة، ثمَّ الصُّعود، في تدرُّجها المحسوس والمنظور لنا. أمَّا الصُّعود في إنجيل يوحنَّا، فهو العمل السِّري غير المنظور، والخاص بالمسيح في علاقته السِّرِّيَّة بالآب؛ لأنه من جهة علاقة المسيح بالآب، لا يمكن التَّفريق "الزمني" بين القيامة والصُّعود، فهما عمل واحد لدى الآب، عبَّر عنه المسيح بقوله: «وأنا إنْ ارتفعت عن الأرض، أجذبُ إليَّ الجميع» (يوحنَّا ١٢:٣٢)، حيث يشير هنا إلى ارتفاع الجسد على الصَّليب، والارتفاع من الموت بالقيامة، والارتفاع بالصُّعود. هذا كلُّه عند المسيح والآب، عمل فدائي واحد متكامل. لذلك لا يصح هنا في قوله «إني صاعد وأصعد»، اللُّجوء إلى التَّمييز الزَّمني في الأفعال.

فالصُّعود الذي تكلَّم عنه القدِّيس يوحنَّا (يوحنَّا ٢٠:١٧)، يرد فيه قول الرَّب للمجدليَّة، بعد قيامته مباشرة، إذ كان لا يزال الظَّلام باقياً، قال لها: «لا تلمسيني لأني لم أصعد بعد إلى أبي». ولكن بعد قليل، وحين توجَّهت مريم المجدليَّة نفسها مرَّة أُخرى إلى القبر مع مريم أُم يعقوب ويوسي، لتنظرا القبر، قال لهما الملاك عن الرَّب «ليس هو ههنا ...». «وفيما هما منطلقتان لتخبرا تلاميذه، إذا يسوع لاقاهما وقال: سلام لكما. فتقدَّمتا وأمسكتا بقدميه وسجدتا له» (متى ٢٨:٩). فما بين هذين اللِّقاءين كان صعود المسيح وترائيه أمام الآب، حاملاً لطبيعتنا الجديدة، لتكتمل بذلك آخر مراحل فدائنا، والتي عندها يمكن للمجدليَّة أن تلمسه بل وتمسك بقدميه أيضاً. وهو تعبير سري بديع عن أنَّ سكنى المسيح في حياتنا في سرّ الإفخارستيَّا، لا يكون إلاَّ بعد أن ننال طبيعة جديدة في سر المعموديَّة المقدَّسة.

أمَّا عن الصُّعود المحسوس للعين البشريَّة، فنقرأ عنه عند القدِّيس لوقا: «وأخرجهم خارجاً إلى بيت عنيا، ورفع يديه وباركهم. وفيما هو يباركهم، انفرد عنهم وأُصعد إلى السَّماء» (لوقا ٢٤:٥٠، ٥١). وصعود المسيح إلى المسيح جاء هنا في صيغة المبني للمجهول، ليوضِّح أنَّ الآب والرُّوح القُدُس مشتركان في هذا الصُّعود. وهنا يقف المسيح وقفة الكاهن الأعظم، فارداً ذراعيه ليعطي الكنيسة – ممثَّلة في تلاميذه – البَرَكَة الأخيرة، قبل أن يحتجب عن الكنيسة بالجسد «إنْ كنَّا قد عرفنا المسيح حسب الجسد، لكن الآن لا نعرفه بعد» (٢كورنثوس ٥:١٦) ليفسح للرُّوح القُدُس أن يعمل في الكنيسة ويذكرها بكل ما قاله، وذلك بحسب وعده. «ولمَّا قال هذا ارتفع وهم ينظرون وأخذته سحابة عن أعينهم» (أعمال ١:٩).

إنَّ القدِّيس لوقا البشير، هو الوحيد الذي سجل للكنيسة تاريخ صعود الرَّب، وباعد بين القيامة والصُّعود بأربعين يوماً، وقد أخذت الكنيسة عنه هذا التَّحديد. وهو الوحيد أيضاً الذي وصف هذا المشهد البديع والمثير والواقعي لارتفاع الرَّب «وأخذته سحابة عن أعينهم».

إنه ليس من السَّهل ولا هو من طبيعة الإنسان، أنْ يلمح الجسم السَّمائي وهو يرتفع، لأنَّ المسيح آنئذ وإن كان يظهر بجسد ملموس ومنظور، فهي قُدرة إلهيَّة لخفض مجاله الإلهي لتراه العين البشريَّة، أو العكس، لرفع مجال الرؤيا البشريَّة لإبصار ما هو إلهي. فهو إنْ شاء ظهر، وإنْ شاء اختفى. وإن شاء أن يراه أحد، يرفع من مستواه لرؤيته، وإلاَّ يبقى غيرُ منظور من كلِّ أحد. لأنه بعد قيامته، تسربل جسده بالمجد، وكأنه التحف بالنُّور أو بالغمام. فلا تقدر العين البشريَّة أن ترى مجدَه إلاَّ إن أراد هو.

لقد قصد المسيح قصداً، وعمل في ذاته عملاً، ورفع من طاقة عيون تلاميذه، حتى يروه صاعداً، فيشهدون بصعوده، مع أنَّ

صعوده لا يُرى. فالذي استطاع أن يُخلي ذاته وينزل إلى مجال البشر ليأخذ منهم جسداً، استطاع أن يستعيد ما أخلاه، ويرتفع إلى مجاله كما كان، ويحتفظ بإخلائه لحظة، حتى يراه الشُّهود الذين تعيَّنوا للشَّهادة. وحينئذ أخذته سحابة عن أعينهم، أو بتعبيره هو: ''دخل إلى مجده''. وإذا كان صعود الرَّب يرافقه مجدُه، تُصبح رؤية الصُّعود وتحديد حركة ارتفاعه، أمراً يتعلَّق بقدرة التَّلاميذ على الرؤيا. وإذ ليس للمجد محدوديَّة، من هنا لا ننتظر أن نحصل على روايات متطابقة للصُّعود بين البشيرين الأربعة.

والقدِّيس لوقا البشير، قد أوضح أنه كما أعلنت الملائكة بُشرى بدء رسالة الخلاص يوم ميلاد الرَّب بالجسد «وُلد لكم اليَوم في مدينة داود مُخلِّص هو المسيح الرَّب» (لوقا ٢:١١)، أعلنت الملائكة أيضاً بُشرى اكتمال رسالة الخلاص، التي أتمَّها المسيح بصعوده إلى السَّماء «إنَّ يسوع هذا الذي ارتفع عنكم إلى السَّماء، سيأتي هكذا كما رأيتموه منطلقاً إلى السَّماء» (أعمال ١:١١). وكما يحتفظ القدِّيس لوقا في روايته عن القيامة، بوجود ملاكَين عند القبر، يبشِّران بالقيامة – وهو ما يوافق أيضاً رواية القدِّيس يوحنَّا (٢٠:١٢) – يذكر أيضاً ملاكَين عند الصُّعود، يبشران التَّلاميذ أنَّ يسوع الذي انطلق إلى السَّماء، سيأتي ثانية من السَّماء (أعمال ١:١٠، ١١).

+ صعود المسيح بالجسد إلى السَّماء، بعد الموت والقيامة، قد استَعلن به مجدَه الإلهي، وأثبت به، أنَّ نزوله وتجسُّده، كان حقيقة خلاصيَّة. فالصُّعود هو قوَّة روحيَّة هائلة، فكَّت أسر المقيَّدين بالرُّوح «سبى سبياً وأعطى النَّاس عطايا» (أفسس ٤:٨). وأعدَّت لنا مكاناً في أقداس الله العُليا (عبرانيِّين ٦:٢٠ ؛ ٩:١٢)، وفتحت لنا طريقاً ملكياً صاعداً إلى السَّماء «طريقاً كرَّسه لنا حديثاً حياً بالحجاب، أي جسده» (عبرانيِّين ١٠:٢٠). بل أصبحَت قوَّة الصُّعود هبة لنا، حيث أننا نحسب بالإيمان، أنه أصعدنا معه وأجلسنا معه في السَّماويات (أفسس ٢:٦). ففي المسيح صار لنا موضعاً في حضن الآب.

يقول القدِّيس إيريناؤس (١٣٠–٢٠٠م) أبو التَّقليد الكنسي:
[إننا نحن الذين كنَّا نحتاج للشَّركة معه. من أجل ذلك، قد أخلى نفسه مجاناً (أي بدون مقابل)، لكي يجمعنا جميعاً في حضن الآب] (ضدَّ الهرطقات ٥:٢:١).

ويقول العلاَّمة كليمندس الإسكندري (١٥٠–٢١٥م)، في قصَّة الشَّاب الضَّال الذي ردَّه القدِّيس يوحنَّا الرَّسول:
[... وأعاده إلى الكنيسة، وقدَّمه كمثال أعلى للتَّوبة، كعربون للميلاد الجديد وللقيامة التي نترجّاها، حينما تأتي الملائكة في نهاية العالم بوجوه مستضيئة بالفرح، وبالتَّسابيح تفتح لنا السَّموات وتستقبل في المساكن السَّماويَّة، الذين تابوا بصدق، بل وفوق الجميع، المُخلِّص نفسه يأتي للقائهم، ويُرحِّب بهم ويُظهر لهم النُّور الذي لا يخبو ولا ينقطع، ويوصِّلهم إلى حضن الآب] (من هو الغني الذي يخلُص ٤٢).

وفي عظة للقدِّيس يوحنَّا ذهبي الفم (٣٤٧– ٤٠٧م) عن الأحد الجديد وتوما الرَّسول، يقول عن فم المسيح:
[سأصعدُ إلى السَّماء التي منها نزلتُ إلى الأرض. سأصعدُ إلى حيث أنا كائن. سأصعدُ بالنَّاسوت إلى المكان الذي منه نزلتُ إليكم باللاَّهوت. سأصعدُ بهذا الجسد إلى المكان الذي نزلتُ منه بدون هذا الجسد، والذي لا زلتُ ماكثاً فيه. سأصعدُ بطبيعتكم إلى حضن الآب، أنا الكائن في حضن الآب] (*PG* 63,930).

• إعطاء الرُّوح القُدُس للكنيسة مرهون بصعود المسيح إلى السَّماء

+ كان الشَّرط الأساسي لإرسال الرُّوح القُدُس إلى الكنيسة لينقل إلينا حياة المسيح وخلاصه، هو أنْ يصعد المسيح إلى السَّماء. فذهاب المسيح إلى الآب، مرتبط ارتباطاً أساسياً بإرسال الرُّوح القُدُس، والذي سيقوم بتعزية التَّلاميذ والكنيسة، وتعليمهم وتذكيرهم بكلِّ ما قاله لهم وعلَّمه لهم، ويكشف لهم حضوره الدَّائم. فنقرأ في إنجيل القدِّيس يوحنَّا «سمعتم أني قلتُ لكم: أنا أذهب ثمَّ آتي إليكم *ὑπάγω καὶ ἔρχομαι*، لو كنتم تحبُّونني لكنتم تفرحون لأني قلتُ أمضي إلى الآب ...» (يوحنَّا ١٤:٢٨). فتعبير «أذهب ثمَّ آتي إليكم» هي الكلمات التي قالها الرَّب للتَّلاميذ في ليلة العشاء الرَّباني، وقال بعدها مباشرة: «وقلتُ لكم الآن قبل أن يكون، حتى متى كان تؤمنون» (يوحنَّا ١٤:٢٩).

واضحٌ هنا أنه سيذهب ثمَّ يأتي إليهم هُم، حتى يؤمنوا هُم أنفسهم. معنى هذا أنه لا يتكلَّم عن مجيئه الثَّاني في نهاية الدُّهور، بل هو يتكلَّم معهم أنه سيأتي إلهم هُم، بعد ذهابه عنهم، وأنهم سيفرحون عندما يرونه. وهو ما حدث بالفعل حين نقرأ في إنجيل لوقا (٢٤:٣٦-٤١) عن ظُهور الرَّب للتَّلاميذ بعد قيامته، إذ كان التَّلاميذ غير مصدِّقين من الفَرَح. أو كما نقرأ في إنجيل القدِّيس يوحنَّا (٢٠:١٩-٢٣) «وقال لهم: سلام لكم، ولَّما قال هذا أراهم يديه وجنبه، ففرح التَّلاميذ إذ رأوا الرَّب» هنا صعود المسيح السِّري إلى الآب، كان قد حَدَثَ. ولذلك قال الرَّب للتَّلاميذ: «سلام لكم. كما أرسلني الآب أرسلكم أنا. ولَّما قال هذا، **نفخ وقال لهم: اقبلوا الرُّوح القُدُس** ... الخ» (يوحنَّا ٢٠:٢١، ٢٢). وهو نفس ما وعدهم بهم في حديثه معهم في ليلة صلبه «وأمَّا المعزِّي، الرُّوح القُدُس، الذي سيرسله الآب باسمي، فهو يعلِّمكم كلَّ شيء، ويذكِّركم بكلِّ ما قُلته لكم» (يوحنَّا ١٤:٢٦).

+ المسيح بالنِّسبة للتَّلاميذ بعد القيامة، هو المسيح الذي صعد إلى الآب وعاد بالحياة الأبديَّة ليسكُبها على الكنيسة كلها، ممثَّلة في التَّلاميذ القدِّيسين، كباكورة لكنيسة العهد الجديد. لقد حقَّق وعده الذي قاله: «إنه خيرٌ لكم أن أنطلق» (يوحنَّا ١٦:٧)، إذ عاد من عند الآب بعد أن أسَّس المكان والمنازل، ومعه عطيَّة الآب، أي الرُّوح القُدُس، الذي أعطاهم إيَّاه في نفس مساء يوم القيامة.

والمسيح لم ينفُخ الرُّوح القُدُس على التَّلاميذ واحداً واحداً، بل أُعطي للتَّلاميذ عطاء كُلياً وقبلوه ككُل، كجسد واحد، ككنيسة مجتمعة متَّحدة. وأمَّا توما الذي كان متغيِّباً في هذا اليَوم، فقد قبله قبول التَّلاميذ وعلى نفس القدر. وليس توما وحده، بل الكنيسة أفراداً وجماعات في كلِّ أنحاء الأرض قَبِلَت الرُّوح القُدُس لَّما قبله التَّلاميذ، لأنه لم يعطَ الرُّوح لأسماء وأشكال وأعداد، ولكن للإنسان – لكلِّ من يؤمن – كخليقة جديدة. وكان التَّلاميذ باكورة مقدَّسة لهذه الخليقة المولودة بالكلمة والرُّوح.

يقول القدِّيس كيرلُّس الكبير (٤١٢-٤٤٤م):

[روحُ التَّبني لم يكن في البشر قبل صعود الرَّب. يقول: «لأنَّ الرُّوح القُدُس لم يكن قد أُعطيَ بعد لأنَّ يسوع لم يكن قد مُجِّدَ بعد» (يوحنَّا ٧: ٣٩) بمجد القيامة من بين الأموات والصُّعود إلى السَّموات. ولكن لَّما صعد إلى هناك الابنُ الوحيد، كلمةُ الله، أرسل كبديلٍ له البارقليط Παράκλητον الذي به يكون هو (أي: المسيح) فينا ...] (عظة ٣٨ على إنجيل لوقا).

+ وتتَّفق الأناجيل وسفر الأعمال، على أنَّ الرُّوح القُدُس قد أُعطي أوَّلاً للتَّلاميذ، ثمَّ حلَّ عليهم ثانياً في يوم الخمسين. فقد نال التَّلاميذ الرُّوح القُدُس بنفخة الرُّوح القُدُس من فم المسيح، تماماً كما نفخ الله الخالق في جبلة الإنسان لَّما خلقه فصار آدم نفساً حيَّة. ففي نفخة القيامة هذه، صار الإنسان خليقة جديدة حيَّة، تتنفَّس بالرُّوح القُدُس لحياة أبديَّة.

وكما خلق الله الإنسان في البداية على صورته، هكذا جدَّد المسيح خلقته بعد القيامة بالرُّوح القُدُس، ليكون على صورة خالقه في البر وقداسة الحق (أفسس ٤:٢٤). وواضحٌ أنها ''إعادة خِلقة''، على مستوى الرُّوح القُدُس لإعطاء الحياة الأبديَّة. وهذه هي المرة الأولى والوحيدة التي ترد فيها هذه الكلمة «نَفَخَ» وهي خاصة بالله وحده. وهكذا خلق المسيح من الرُّسُل، بنفخة فمه، باكورة خلائقه بالرُّوح القُدُس، لميراث جديد في السَّماء، لحياة أبديَّة.

أمَّا عن حلول الرُّوح القُدُس على التَّلاميذ المجتمعين في العِلِّيَّة في يوم الخمسين، فهو حلول لبدء انطلاق الخدمة والكرازة بقوَّة الرُّوح القُدُس.

وللقدِّيس كيرلُّس الكبير شرحٌ، للتَّفريق بين عمل عطيَّة الرُّوح القُدُس للتَّلاميذ بالنَّفخ من فم المسيح، وبين حلول الرُّوح القُدُس يوم الخمسين عليهم وهم مجتمعون فيقول:

[إنَّ مُخلِّصنا أعطى الرُّوح بواسطة العلامة الظَّاهرة وهي ''نفخته'' للتَّلاميذ القدِّيسين، باعتبارهم باكورة

الطبيعة البشريَّة المجدَّدة. وكما كَتَبَ موسى عن الخلق الأوَّل أنَّ الله نفخ في أنف الإنسان نسمة الحياة، يحدُث نفس الشَّيء الذي حدث في البدء، عندما يجدِّد الله الإنسان، وهو ما يسجِّله يوحنَّا هنا. وكما خُلق الإنسان في البـــدء على صورة خالقه، كذلك الآن بالاشتراك في الرُّوح القُدُس، يتغيَّر إلى صورة خالقه ويُصبح على مثاله ...

ولكن في أيام عيد الخمسين المقدَّس، فقد أعلن الله علانية، نعمته وأظهر مجيء الرُّوح القُدُس للكُـــل ولـــيس للتَّلاميذ فقط ... ولم يكن هذا بالنِّسبة للتَّلاميذ بداية نعمة الرُّوح القُدُس الذي سكن في قلوبهم، ولكن بداية نعمة التَّكلُّم بالألسنة ... وهذا يعني بداية التَّكلُّم بالألسنة، وليس بداية التَّقديس ... أي بداية عمل الرُّوح القُدُس الذي فيهم] (تفسير إنجيل يوحنَّا ٢٠:٢٢-٢٣).